الحياة الإسلامية فى المغرب وإفريقية

مع قيام الدولة العباسية سنة (١٣٢هـ)؛ انفصلت عن دولة الخلافة الكبرى - من الناحية السياسية - بعض الأقاليم، ولاسيما البعيدة منها. . . وكان المغرب العربى وإفريقية الإسلامية والأندلس أبرز المناطق التى انفصلت. . . ولم ينظر قط إلى هذه الدول إلا على أنها دول مستقلة عسكريًا وسياسيًا، أما العقيدة والشريعة والقيم فواحدة. . . وكانت كلها تنتسب إلى الإسلام وتحمل رايته، وقد كان الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ) يرتبطون بالخلافة العباسية، ويحكمون باسمها، وعاصمتهم القيروان أصبحت من أشهر العواصم الإسلامية نشرًا للثقافة الإسلامية، وعن طريق قوتهم البحرية الهائلة قاموا بغزو مالطة والسواحل الإيطالية الجنوبية، وقد نجحوا فى عهد زيادة الله الأغلبى فى الاستيلاء على صقلية، بقيادة القائد الفقيه القاضى أسد بن الفرات (٢١٢هـ)[١].

أما الأدارسة فقد استقلوا فى المغرب الأقصى، وكانت عاصمتهم (فاس)، وقد حكموا نحو قرنين من الزمان (١٧٢ - ٣٦٣هـ).

وفى المغرب الأوسط (الجزائر) قامت دولة بنى رستم على يد مؤسسها عبد الرحمن بن رستم؛ الذى كان مولى لعثمان بن عفان (رضى الله عنه)، وهو منشئ مدينة تاهرت (العاصمة)، وكان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويشارك الناس فى أعمال البناء للمساجد ولبيوتهم بيده. . . ومع أنه كان خارجى المذهب

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٠٢، بتحقيق كولان وبروفنسال - بيروت.

إلا أنه كان - ودولته - ملتزمًا بالشريعة فى إطار المذهب الإباضى . . . وقد عاشت الدولة أكثر من قرن ونصف (١٤٤ - ٢٩٦هـ) [١]، حتى قضى عليها الشيعة الفاطميون، وقد ازدهر المغرب الأوسط على عهد الرستميين، وأصبحت تاهرت مدينة علمية وثقافية حافلة بالأجناس من شتى أنحاء العالم الإسلامى [٢]، وكانت الدولة على علاقة طيبة بالأمويين فى الأندلس، وقد عملوا على نشر الإسلام فى داخل إفريقية [٣].

وكانت دولة بني مدرار (واسول) في سجلماسة؛ تشبه أن تكون جناحًا خارجيًا لبنى رستم، وكانت مثلها فى الاعتدال والالتزام بالإسلام، وكانت عاصمتها سجلماسة [٤]، وعاشت أكثر من قرنين (١٤٠ - ٣٤٩هـ)، وكانوا لا يبيحون دم مسلم إلا بحقه، ولا يميلون إلى تكفير أحد من المسلمين [٥]، وقد تعاونوا مع بنى رستم فى أمور كثيرة نافعة؛ حتى قضى عليهم الشيعة!!

فهكذا ارتبطت هذه الدولة بالإسلام وشريعته وحضارته وجاهدت فى سبيله على الرغم من استقلالها السياسى.

المرابطون فى المغرب: نموذج رائع للإخلاص للإسلام

أما المرابطون الصنهاجيون (٤٣٠ - ٥٤٠هـ) فدولتهم - بحق - إحدى أعظم الدول الإسلامية فى إفريقية والمغرب العربى، وقد قامت هذه الدولة على أساس العناق التام بين الدولة والأمة، على كتاب الله وسنة رسوله، والجهاد فى سبيل إقامة مجتمع إسلامى، ونشر الإسلام فى إفريقية، وقد وضعوا نصب أعينهم تربية الشعب على أسس إسلامية جادة، والتقدم به للقضاء على الوثنيات فى إفريقية، وحركات المرتدين، وأدعياء النبوة فى قبائل غمارة وبرغواطة، وكان ابن ياسين يلقب بمحيى السنة، وقامع البدع والأضاليل.

(١) المصدر السابق ١/ ١٩٦.
(٢) أحمد مختار العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس، ص: ١٨٨، طبع الإسكندرية.
(٣) المرجع السابق.
(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ١/ ١٥٦.
(٥) أحمد مختار العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس، ص: ١٨٨، ١٨٩.

وقد أحدث (عبد الله بن ياسين) هزة فى حياة العامة فى هذه المنطقة، فغيَّر بعض العادات، وأحيا الروح الدينية، وأقام حدود الإسلام، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس [1].

وكان رجال الدولة المرابطية على هذا المنهج، ومنهم يحيى بن إبراهيم، ويحيى بن عمر، وأبو بكر بن عمر اللمتونى، ويوسف بن تاشفين، وغيرهم، وقد علَّموا الناس فى الأربطة الدين والعمل؛ فاعتمد رجال الرباط على أنفسهم فى الحصول على كل ما يحتاجون إليه، عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من البر والبحر، كما كانوا يعدون طعامهم بأنفسهم، مع الاكتفاء فى الطعام بأقل القليل، وبالخشن من الثياب؛ فقد كانت حياتهم البسيطة متواضعة، خشنة، فهم لا يبتغون غير الدار الآخرة، وآلوا على أنفسهم الإخلاص، والتوبة، والتعبد[2].

وقد تمخضت جهود المرابطين عن إسلام شعوب (التكرور) بغرب إفريقية؛ التى كانت أول الزنوج الذين اعتنقوا الإسلام، فى حركة المرابطين الأولى، فى أيام الشيخ عبد الله بن ياسين، فعمل التكرور بدورهم على متابعة الدعوة إلى هذا الدين، وأصبحوا دعاة للإسلام بين قبائل الولوف، والفولبى، والماندنجو، ونشروا المدارس الإسلامية فى السودان الغربى، فاستوعبت هذه القبائل الإسلام، وأخذوا من حضارة العرب، وتأثروا بالشريعة الإسلامية، واستعانوا بالدعاة من المرابطين فى بلاطهم؛ لتعليمهم الشريعة والقراءة، والكتابة، حتى إنهم قلدوهم فى ملابسهم، ووقفوا معهم فى موجة اندفاع المرابطين فى عهد يوسف بن تاشفين، وجهودهم فى نشر الإسلام فى منتصف القرن الحادى عشر (السادس الهجرى)، ويمدون نفوذهم إلى الجنوب، وإلى الجنوب الشرقى، فتكونت بعد ذلك من هذه الأراضى إمبراطورية مالى.

وانتشر مسلمو غانة الذين اعتنقوا الإسلام فى اتجاه ديارا، وغلم، ومينا، واتجهوا خاصة إلى ديا، ومن ديا تحركت مجموعات من الديولا؛ الذين حملوا

---

(١) د. عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين فى نشر الإسلام فى غرب إفريقية، ص: ٦٦، ط دار الغرب (١٩٨٨م)، وانظر إبراهيم الجمل: الإمام عبد الله بن ياسين، ص: ٦١، دار الإصلاح بالدمام.

(٢) د. عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص: ٧٤.

الإسلام إلى الحدود الشمالية لمنطقة الغابات، وهناك أنشئوا مراكز إسلامية مثل (بيجو) بالقرب من جنوب نهر الفولتا الأسود، ومن هناك انتشرت المدن التجارية مثل بوندونكو، والكونج[1]؛ وهى مدن تجارية قامت الحياة فيها على أساس الشريعة الإسلامية، والرباط فى سبيل الله.

دور الموحدين الحضارى

وأما الموحدون فقد حملوا الراية فى المغرب والأندلس بعد المرابطين[2]، واستمروا فى عملهم لأكثر من قرن (٥٤٠ ـ ٦٥٠هـ)، وما فتئوا يحملون شعلة الإسلام، ويوحدون الأمة، وكان الخليفة عبد المؤمن بن على فقيهًا ومحدثًا وأصوليًا[3].

ولا ينكر باحث أن ثمة أخطاء وقعت فيها الدولة الموحدية، على أن تلك الأخطاء التى تقرؤها فى سطور الدولة الموحدية الأولى قد اقتصرت على حياة المهدى بن تومرت تقريبًا، وكما يخرج النور أحيانًا من التراكمات المظلمة، وكما تنبثق الشمس من بين السحب. . . كذلك وقع فى مسيرة الدولة الموحدية؛ فما إن مات المهدى بن تومرت سنة (٥٢٤هـ) حتى بدأت موازين دولة الموحدين تعتدل على يد (عبد المؤمن بن على)؛ الذى خلف محمد بن تومرت، ومات سنة (٥٥٨هـ). . . ثم ابنه يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠هـ) فابنه يعقوب المنصور (ت٥٩٥هـ) بطل معركة (الأرك)؛ التى وطدت لدولة الإسلام فى الأندلس نحو ربع قرن من الزمان، ثم الناصر (ت٦١٠هـ)[4].

ولهذه الدولة الموحدية الفضل فى الوحدة التى انتظمت المغرب والأندلس، كما أن لها اليد الطولى فى عودة تونس إلى حظيرة الإسلام بعد أن استولى عليها النصارى النورمان المتعصبون.

---

(١) المرجع السابق، ص: ١٢٦ ـ ١٤٧، وكل هذه القبائل فى السودان الغربى (غرب إفريقية)، وقد سيطر الماندنجو على نهر النيجر والأماكن المطلة عليه، وأقاموا كيانات سياسية.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ٤/ ٧ وما بعدها.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ المغرب ١/ ١١٤، نشر مكتبة السلام بالدار البيضاء.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ٤/ ١٢٧، وما بعدها (بتصرف).

وقد اشتهر عن الدولة الموحدية ـ وبخاصة فى عهد أمرائها الأقوياء ـ ازدهارها الاقتصادى ؛ الذى تمثل فى أربعة مظاهر أساسية :

أولاً : كثرة المصانع سواء فى المغرب أو الأندلس .

ثانيًا : التبادل التجارى مع مختلف أقاليم حوض البحر المتوسط ؛ حيث كانت للموحدين مكاتب تجارية تشبه الفنادق فى بعض مدن فرنسا وإيطاليا ، كمرسيليا وجنوة والبندقية .

ثالثًا : العملة الموحدية القوية .

رابعًا : الأسطول التجارى البحرى ؛ الذى كانت تفرزه صناعة السفن[١] .

وفى المجال العقدى أو الفكرى ؛ وقف الموحدون فى وجه السيطرة الكاملة التى تمتع بها فقهاء المذهب المالكى ، والذين كادوا يغلقون أبواب الاجتهاد ، فلما جاء الموحدون دعوا إلى الاجتهاد ، وشجعوا الربوع إلى الكتاب والسنة ، وازدهرت فى عهدهم دراسة علمى الكلام والأصول ، وكان من نتيجة ذلك أن لان فقهاء المالكية ، وتركوا التعصب المذهبى الأعمى ، ومالوا إلى النظر فى كتب الأصول .

الحياة الدينية والتربية والتعليم فى المغرب العربى (الإسلامى)

وفى المغرب الإسلامى كله بصورة عامة منذ الفتح وحتى سقوط دولة الموحدين ؛ كان المسجد يقوم بدور تعليمى كبير ، بحيث إنه لم يكن ثمة مسجد فى مدينة خال من المدرسين[٢] ، وقد أطلق عليه فى المغرب العربى اسم (المسيد) ، وكثيراً ما كان هذا (المسيد) علمًا على «ملحق» يلتصق بالمسجد . . . ويفرد للناحية التعليمية .

---

(١) دكتور/ أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ٤/ ١٥٣ ، وما بعدها ، طبع دار النهضة العربية ـ مصر .

(٢) توفيق المدنى : هذه هى الجزائر ، ص : ٨١ ، كتالوج بجاية ، ص : ٥٨ .

وقد تطور هذا «المسيد» فى القرن الخامس الهجرى، فاستقل بنفسه عن المسجد، وصار كيانًا بذاته من حيث البناء والهدف[1]؛ لكن هذا التطور لم يمنع المسجد من أن يكون محل تعلم، إلا أنه ارتفع طبقة فصار بمثابة دار «للتعليم الثانوى» أو «التعليم العالى»، إلى جانب «المسيد» و«المسجد» وجدت «الزاوية» فقد كانت الزوايا كثيرة جداً.

وكانت الكتاتيب مكانًا لأشهر أنواع التعليم الابتدائى، ويبدو أنها كانت قريبة - فى تخصصها - من عمل «المسيد»، وإن كانت تتميز بملكيتها الخاصة.

ويبدو أن ما عرف فى بلدان المغرب العربى باسم «الشريعة»؛ كان يقوم أحيانًا مكان «الكُتّاب»، وهى «خيمة مدرسية عند البدو»[2] إلى جانب كونه مصلى تقام فيه «الأعياد»، وربما صلوات الجُمَع، ومن المحتمل أن «الشريعة» كانت محل تعليم البدو فى مقابل «المسيد»؛ الذى كان محل تعليم أهل المدن، وكان غالبًا يطلق على ملحق بالمسجد، وكان ينتقل بانتقال الحى وفق ضرورة الانتجاع، أو دواعى تزاحم القبائل، ويتعلم فيها الصغار من الجنسين (الأحداث)[3]، وفى المدن المغربية الكبرى كان يوجد لون من التعليم العالى (الجامعى)، وعلى سبيل المثال، فقد أنشأ الناصر بن علناس المتوفى سنة (٤٨١هـ) فى بجاية (الجزائرية) معهد «سيدى التواتى»؛ الذى يحتوى على ثلاثة آلاف طالب وتدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية[4]، ولقد ازدهرت الحياة العلمية فى المغرب العربى ازدهاراً كبيراً تدلنا عليه هذه المكانة التى احتلتها عواصم المغرب الحضارية آنذاك كـ«فاس والقيروان وتلمسان وبجاية وتونس» وغيرها، وقد برز فى هذه العواصم العلماء والفقهاء والشعراء والمؤرخون والأطباء والرياضيون وغيرهم من طوائف الاشتغال بفنون العلم المتعددة.

---

(١) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة فى المغرب العربى، ص: ٧١، ٧٢، طبع تونس.

(٢) المرجع السابق، ص: ٧٢.

(٣) كتالوج بجاية، ص: ٦٧، نشر الجزائر بإشراف الدكتور/ بوربية، عميد كلية الآداب الأسبق بالجزائر.

(٤) ليفى بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس، ص: ٨٩، حاشية، طبع نهضة مصر.

ولقد لقيت علوم القرآن والسنة ـ من تفسير وحديث وقراءات وفقه ـ اهتمام الدول المغربية، وجمهرة المسلمين.

وقد اتجهت الحياة الدينية إلى دراسة الأحاديث المجموعة فى كتب الفروع، وفقًا لمدرسة الحديث؛ التى كان إمامها «مالك» إمام أهل الحديث بالمدينة، وكانت كتب المالكية الشهيرة؛ كموطأ الإمام مالك، والتلقين لعبد الوهاب البغدادى، والواضحة لابن حبيب (١٦٣هـ/ ٧٧٩م) «والعتبية» للعتبى[١]، و«الأسدية» التى جمعها أسد بن الفرات (٢١٣هـ/ ٨٢٨م)[٢] أثناء تلمذته على «عبد الرحمن بن القاسم» (ت١٩١هـ/ ٨٠٦م) إمام المالكية بمصر، «والمدونة» أو «المختلطة» التى جمعها فى فقه المالكية أبو سعيد عبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون والمتوفى سنة (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)؛ على رأس الكتب التى تجد من المغاربة أكبر اهتمام.

الحياة الدينية والعلمية فى إفريقية السوداء

وإذا ما عبرنا منطقة الشمال الإفريقى، ودخلنا إلى إفريقية السوداء؛ فسوف نجد جهودًا شعبية إسلامية ناجحة، تكررت فى الأمكنة والأزمنة المختلفة. . . وحسبنا هنا فى عملية التحليل التى نقوم بها ـ لدحض الآراء العمومية غير العلمية ـ أن نرصد بعض المحاولات البارزة التى نجح أصحابها فى نشر كلمة الله، وتطبيق الشريعة الإسلامية، ومقاومة الجهل والبدع والانحلال.

لقد شهدت بلاد الهوسا فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى (١٥ للميلاد) تحولات خطيرة وحركة إصلاحية عظيمة قادها بعض السلاطين كسلطان (كانو) محمد رمفا، وسلطان (كتسينا) محمد كورو، وسلطان (زاريا) محمد رابو، الذين اعتنوا اعتناء كبيرًا بإحياء الشعائر الدينية، ومحاربة الوثنية، وإضفاء الثوب الإسلامى على النظم السياسية، بالإضافة إلى توسيع قاعدة التعليم، وتشجيع العلماء لنشر العلم فى بقاع البلاد المختلفة، ونخص فى هذا المجال

(١) الحلة السيراء ٢/ ٣٨١، بتحقيق: حسين مؤنس، طبع مصر.
(٢) ابن خلدون: المقدمة ٣/ ١٠٢٢، بتحقيق: على عبد الواحد وافى، طبع مصر.

السلطان محمد رمفا؛ الذى وضع اللبنة الأساسية للبنية السياسية والاجتماعية والشرعية للدولة، والذى غيَّر من ملامح الدولة شبه الوثنية، وأدخل نظام الدواوين الإسلامية فى سلطنته[1].

ولقد تزامن عهد هذا السلطان مع زيارة أحد كبار العلماء المجاهدين من الشمال الإفريقى لبلاد السودان الأوسط والغربى، وخاصة أغذر وكاتسينا وكانو وستفى. . . وذلك الشيخ هو محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى التواتى.

وتذكر بعض المصادر أن المغيلى أنشأ مدرسة إسلامية فى كاتسينا، وجلس يعلم الناس شؤون دينهم. . . وأثمرت مجهودات محمد بن عبد الكريم المغيلى فى تخريج عدد كبير من العلماء، وتأسيس مدارس علمية كثيرة[2].

وفى الربع الأخير من القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) ظهرت حركة الشيخ (عثمان بن فودى) النيجيرى (١١٦٦-١٢٣٣هـ) (١٧٥٢-١٨١٧م)، وكانت تقوم على نشر الإسلام وتطهيره من البدع والخرافات التى لحقت به.

وكان الشيخ (عثمان بن فودى) فى بداية دعوته يحدث الناس فى خمسة أمور رئيسة: **أولها:** ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة، **وثانيها:** ما يتعلق باتباع السنة وترك ما دونها من البدع والمنكرات. **وثالثها:** فى رد الأوهام والآراء الخطأ فى أذهان الطلبة؛ مما تلقوه من علم الكلام، وتكفيرهم عامة الناس بلا مبرر شرعى، **ورابعها:** فيدور حول إخماد البدع الشيطانية التى أحدثها الناس فى دين الإسلام، ورد العوائد المخالفة للشرع.

ويختص الأمر الخامس: بتعليم العلوم الشرعية وتبسيط مشكلاتها، وتقريبها من فهم العوام.

وعندما تكاثر أتباعه، وهاجر إليه الناس من أقاصى البلاد مستمعين لوعظه، ومقتدين بسلوكه، حسده علماء زمانه، وأظهروا له العداوة والبغضاء، ووشوا به

(١) أحمد محمد كانى: الجهاد الإسلامى فى غرب إفريقية، ص: ٣٥، ط١، الزهراء للإعلام العربى(١٤٠٧هـ)- مصر.
(٢) المرجع السابق.

لدى الحكام لتعطيل مسار دعوته . . . وبالرغم من ذلك فلم يكترث الشيخ/ عثمان بن فودى بكيدهم، ومضى يحاربهم باللسان والقلم، داحضًا افتراءاتهم، ومبلغًا رسالته بصدق وإخلاص أذهل الناس جميعهم.

ولقد استطاع الشيخ/ عثمان بن فودى ـ بعد فترة وجيزة من قيام دعوته ـ تكوين جماعة تسمى بـ (الجماعة)، وكان قوامُها تلاميذ الشيخ نفسه، الذين تلقوا العلم على يديه، والذين صقلهم فكريًا، وهيأهم ذهنيًا وعلميًا للقيام بمسؤولياتهم فى التربية والدعوة إلى دين الله [1].

وفى سبتمبر (١٧٨٨م) استدعى سلطان غوبر باو علماء بلاده، وكان من بينهم الشيخ/ عثمان بن فودى للاجتماع به فى مناسبة عيد الأضحى، ولما اجتمعوا به فى مكان يسمى (مغمى) حاول سلطان غوبر إرضاء الشيخ/ عثمان ابن فودى؛ بإعطائه خمسمائة مثقال من الذهب كمكرمة له . . . لكن الشيخ/ عثمان بن فودى ـ على غير عادة العلماء الآخرين الذين كانوا معه ـ رفض تلك الهدية، وطالب بدلاً منها بخمسة أشياء :

١ـ أن يسمح له بالحرية فى التجول فى البلاد للدعوة فى سبيل الله.

٢ـ ألا يُعترض سبيل أى شخص يريد الاستجابة لدعوة الشيخ.

٣ـ أن يوقر كل عالم يلبس العمامة.

٤ـ أن يطلق سراح المسجونين «السياسيين».

٥ـ ألا تفرض ضرائب باهظة على الرعية [2]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السلطان غوبر «باو» قد قبل هذه «الشروط» مرغمًا، وكان هذا الموقف نقطة انطلاقة لدعوة الشيخ/ عثمان بن فودى، واعتبر أول انتصار سياسى على حكام بلاد الهوسا.

وهكذا قدم الشيخ/ عثمان بن فودى تجربة لحركة إسلامية شعبية إصلاحية رائعة.

---

(١) أحمد محمد كانى : الجهاد الإسلامى فى غرب إفريقية، ص: ٧٢، ٧٣ .

(٢) المرجع السابق، ص: ٧٦ .